مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 16 / العـدد 02 / سبتمبر 2022 / ص ص 93 - 106
Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

الأسس الديكارتية للمنهج الهندسي عند باروخ سبينوزا

the principles Descartes Geometrical Method at the philosopher Baruch Spinoza

محمد مسيكة [1] ، شهيدة لعموري [2]

[1] مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية والسوسيوعاطفية - جامعة ورقلة (الجزائر) ، messika.mohamed@univ-ouargla.dz

[2] مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية والسوسيوعاطفية - جامعة ورقلة (الجزائر) ، chahida.lamouri@unvi-ouargla.dz

تاريخ الاستلام: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2022/03/31 تاريخ النشر: 2022/09/30

ملخص:

نعالج في هذه الورقة البحثية، دراسة أسس المنهج الهندسي عند الفيلسوف باروخ سبينوزا، وذلك من منطلق البناء العلمي للمنهج الذي قدمه في كتابه علم الأخلاق، والذي كانت نواته الأولى من منهج روني ديكارت الرياضي ، كما كانت بدايته بمجموعة من التعريفات ثم البديهيات وصولاً إلى عدد من القضايا من أجل البرهنة عليها بمنهج رياضي، وتبعا لذلك فإنّ العناصر التي تشكل المنهج الهندسي هي: أولا التعريفات وثانيا البديهيات وثالثا البراهين، تلك الخطوات السابقة مهدت الطريق لاسبينوزا لتأسيس منهجه الهندسي واستبعاد فكرة الغائية من نسقه الفلسفي، وحاول إظهار الروح العلمية التي كانت مهيمنة على الخطاب الفلسفي الحديث في تلك الفترة من تاريخ الفكر الفلسفي.

والإشكالية المحورية لهذه الدراسة: ما هي الأسس التي اعتمد عليها سبينوزا في بناء منهجه الهندسي؟ من خلال مجموعة من التعاريف والبديهيات والبرهنة عليها؟

كلمات مفتاحية: أسس، ديكارت، منهج، هندسي، باروخ إسبينوزا.

ABSTRACT:

In this research paper, we treat the study of the foundations of the engineering method of the philosopher Baruch Spinoza, based on the scientific construction of the method presented in his book Ethics, whose first nucleus was the mathematical method of Ronnie Descartes, as was its beginning with a set of definitions and then axioms, leading to a number of The issues in order to prove them using a mathematical method, and accordingly, the elements that make up the engineering method are: first the definitions, secondly the axioms, and thirdly the proofs. Modern philosophical in that period of the history of philosophical thought. The central problem of this study: What are the foundations on which Spinoza relied in building his engineering method? approach Through a set of definitions and axioms?

Keywords: Foundations, Descartes, Method, Geometrical, Baruch Spinoza.

1- مقدمة:

يعتبر تاريخ الفلسفة تفاعلا مستمرا بين الحقائق العلمية والتفكير الفلسفي، بل إن الحقائق العلمية كثيرا ما كانت مادة للتأمل الفلسفي لاستجلاء طبائع الأشياء وجعلها أكثر موضوعية ووضوح، لذلك حاولت الفلسفة الإقتداء بالعلوم المضبوطة واستخدام الرياضيات على نطاق واسع في التعبير عن الحقائق والأفكار. فقد أدى التطور العلمي الذي حدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى التأثير في الفلسفة، التي حاولت إتباع المناهج العلمية والرياضية لتحري الدقة والوضوح في أفكارها، وهكذا أثرت الرياضيات في الفلسفة وأصبحت طريقة واضحة عند فلاسفة القرن السابع عشر.

- المؤلف المرسل: محمد مسيكة

doi: 10.34118/ssj.v16i2.2487
http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj/article/view/2487
ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

لقد كانت الرياضيات ملهمة للفيلسوف رينيه ديكارت (1596-1650م)René Descartes الذي رأى أنّ القضايا الفلسفية لا يمكن لها أن تكون مُحكمة إلاّ عن طريق التعبير عنها بلغة رياضية لكي تصل لدرجة الوضوح والدقة والثقة. وهكذا سار باروخ سبينوزا(1632-1677م) Baruch Spinoza على هذا النهج العلمي والرياضي، فاتخذ من المنهج الهندسي (The Geometrical Method) أنموذجاً في كتابه علم الأخلاق مؤيدا بالدليل الهندسي(Ethique) من أجل التعبير الدقيق عن أفكاره الفلسفية في مجال اللاهوت والأخلاق، وتقريرا بكل وضوح ما الذي يكون صالحا للإنسان من أفعال.

لقد كان المنهج الهندسي المعتمد على الرياضيات عند سبينوزا وسيلة مثالية للتعبير عن القضايا الأخلاقية بطريقة علمية تؤدي بنا إلى تجنب الأساليب التي تدخل فيها النزعة الإنسانية البعيدة كل البعد عن الوضوح والدقة، والابتعاد عن الغائية في التفكير والاتجاه نحو الحتمية العلمية التي أظهرها سبينوزا في كل فلسفته، وهذا من أجل الإيمان بالعلم وجعل الإنسان حرا من أيّ فكرة غامضة، فكان بذلك المنهج الهندسي جزءاً مهماً من المنظومة الإسبينوزية.

إنّ الخطاب الفلسفي الإسبينوزي يعتمد أنموذجاً رياضياً يتميز بالدقة والصرامة المنهجية في طرح القضايا الفلسفية والبرهنة عليها وفقاً للطريقة الهندسية التي عمل بها سبينوزا، وتنطلق من التعريفات والبديهيات وصولاً إلى البرهنة على القضايا.

هذا ما يدفعنا لطرح التساؤلات التالية: ما هي الأسس التي اعتمد عليها سبينوزا في بناء منهجه الهندسي؟ والبرهنة على قضاياه الفلسفية بطريقة علمية؟ وما هي الخطوات التي ساهمت في تأمين بناء منهجه الهندسي ؟.

2- مدخل مفاهيمي:

2-1- مفهوم المنهج العلمي:

قبل أن نُعرّف ((المنهج العلمي)) يجب التطرق لمفهوم ((المنهج)) وتحليل دلالته اللّغوية والاصطلاحية، حتى يكون الانتقال لمفهوم ((المنهج العلمي)) مشروعا. إنها تحليلات أولية تعمل على تمهيد الطريق وتحديد معالمه.

نبدأ بتحليل الدلالة اللّغوية والاشتقاقية للفظة ((منهج)) من حيث الأصل في اللّغة، ثم ننتقل من ((المنهج)) كلفظة إلى ((المنهج)) كمصطلح.

المنهج: هو الطريق الواضح. وجميع الكتب العربية سميت بهذا الاسم تشير إلى أنّ المنهج أو المنهاج عند مؤلفيها هو الطريق الواضح، والسلوك البيّن، والسبيل المستقيم. (جميل، 1982، صفحة 435)وفي الموسوعة العربية الميسرة، نجد أن المنهج في اللغة هو الطريق. (الموسوعة العربية المسيرة (المجلد السادس)، 2009، صفحة 3223) أما معجم لالاند فالمنهج، هو برنامج ينظم مسبقا سلسلة عمليات ينبغي إكمالها وتدل على بعض الأخطاء الواجب تجنبها، بغية بلوغ حقيقة معينة. (لالاند، أندريه ، تعريب: خليل أحمد خليل ، 2001، صفحة 803)

والمنهج في اللغة العربية هو الطريق الواضح المستقيم، الذي يفضي بصحيح السير فيه إلى غاية مقصودة، بسهولةٍ ويسر. ومن هذا الأصل جرى استعمال لفظ المنهج لتعني بوجه عام ((وسيلة محددة توصل إلى غايةٍ معينة)). نهج نهجاً تعني اتخذ منهاجاً أو طريقا للوصول إلى غاية.

والمنهج (Method) كلفظ يعني الطريق والطريقة، فإنّ المنهج كمصطلح في أشدّ معانيه عموما يعني طريقة تحقيق الهدف والطريق المحدد لتنظيم الجهد والنشاط. (يمنى، 2020، صفحة 28) فالمعنى الاصطلاحي للمنهج هو الطريق المؤدي إلى بلوغ الحقيقة. ويعرف المنهج باعتباره (مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم، بلوغ الحقائق المتوخاة مع إمكانية بيانها والتأكد من صحتها. والمنهج كمصطلح فلسفي على وجه الخصوص يعني: وسيلة المعرفة، وطريقة الخروج بالنتائج الفعلية من الموضوع المطروح للدراسة.

إذن، فالمنهج هو المجال أو الطريقة أو الوسيلة التي يسلكها الباحث من أجل الوصول إلى مرامه، وبلوغ الغايات المسبقة التخطيط والدراسة. (لالاند، 1996، صفحة 800)

ويعرف لالاند المنهج العلمي: على أنه الطريق الذي نصل من خلاله وبه إلى نتيجة معينة حتى وإن كانت هذه الطريقة لم تتحدد من قبل تحديدا علميا، وهنا يطلق إسم الترتيب على فعل الفكر الذي يكون حول موضوعا واحد وعدة أفكار وعدة أحكام، فيرتبها على أفضل وجه لجعل الموضوع معروفا وهذا ما يسمى منهجا علميا، وغالبا وما تقال هذه الكلمة على أساليب وطرق مألوفة لعقل أو محموعة عقول وهي طرق يمكن تحديدها بالإستدلال سواء لتطبيقها لاحقا بنحو أوثق أو لنقدها وإظاهر عدم صلاحها.

3- الأسس الإبستيمية للمنهج الهندسي عند إسبينوزا

كان ديكارت مجددا في المنهج، فذلك ما يمكن أن نتبيّنه معه من خلال نظرته إلى المنطق بصفة عامة، وإلى القياس الأرسطي والاستقراء التجريبي بصفة خاصة، فالمنطق يقف عند أفعال العقل، يحللها تارة، ويدل على مواطن الصدق والخطأ فيها تارة أخرى إذ يرى كل من ديكارت وبيكون (1561،1662م) Francis Bacon أنّ هذا التحليل عقيم ليس وراءه طائل، والقياس الأرسطي وهو عنده استنباط عند المعلم الأول لا يسمن ولا يغني من جوع، لأنه ليس إلاّ طائفة متسلسلة من الحدوس. (رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد ، 1968، صفحة 25) فكيف استطاع رونيه ديكارت التأسيس لمنهجه الجديد، بعيدا كل البعد عن المنطق الأرسطي السائد آنذاك؟

3-1- أسس المنهج الديكارتي:

وقد وجد ديكارت في الرياضيات المثال الذي ينبغي الاحتذاء به في العلم لاعتقاده أنّ المعرفة لا تكون معرفة إلاّ إذا كانت يقينية، وعلى ذلك اعتبر ديكارت المعرفة المحتملة تناقضاً في الألفاظ، ويقصد ديكارت بالمعرفة المحتملة أي كل معرفة ضنية لا تحمل يقينا واضحا بين طياتها، فالأفكار الصادقة هي التي بنى عليها ديكارت أساسه المنهجي، وهذا شأن كلّ من يسعى الوصول إلى اليقين في العلم الطبيعي، لأنّ الرياضيات وحدها تفي بمستلزمات اليقين المنشود في العلوم. وعلى هذا اتخذ ديكارت المنهج الرياضي نموذجاً للعلم. (كريم، 2001، صفحة 54)

وإذا كان ديكارت يبتغي أن ينهج في البحث العلمي منهجاً رياضياً، أي يبدأ بقضايا صادقة بذاتها ثم ينتقل إلى قضايا أخرى تترتب عليها منطقياً، فلا بد أن يقوم المنهج العلمي الصحيح على عمليتين: الحدس Intuition والاستنتاج Déduction. يقول ديكارت: ((إنّ كل العمليات العقلية التي تمكننا من الوصول إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى الوقوع في الخطأ لا تتعدّى عمليتين هما الحدس والاستنتاج)). (كريم، 2001، صفحة 56)

ويُعرف رينيه ديكارت المنهج بقوله: "أعني بالمنهج مجموعة من القواعد اليقينية البسيطة إلى الحد الذي يجعل من يراعيها بدقة لا يرى أبداً شيئاً كاذباً على أنه صادق، بحيث يكون في مقدروه أن يصل – دون أن يضيع شيئا من جهده العقلي، وإنما يزيد من معرفته شيئا فشيئاً- إلى فهم صحيح لكل الأشياء التي لا تتجاوز قدرته" (رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد ، 1968، صفحة 141) حيث يقوم المنهج الديكارتي على أساسين:

- الحدس (Intuition).
- الاستنباط (Déduction).

فأما الحدس، فهو الرؤيا العقلية المباشرة التي يدرك بها العقل بعض الحقائق التي لا سبيل لإنكارها، ويؤكّد ذلك ديكارت في قوله: ((لا أقصد بالحدس شهادة الحواس المتقلبة ولا الحكم الطائش الذي يصدر عن الخيال المخطئ، بل المفهوم الذي يقدّمه لنا عقل صاف ويقظ عن شيء والذي بلغ من الوضوح والدقة بحيث لا نشك مطلقاً فيما أدركناه. ويصدر عن نور العقل وحده)).

(كريم، 2001، صفحة 56) والأمثلة على الحدس كثيرة: منها أنّ كل واحد يستطيع أن يعرف بالحدس بأنه موجود لأنه يفكر فيه، وأنّ المثلث شكل هندسي محاط بأضلاع ثلاثة فقط وما إلى ذلك.

وأما الاستنباط (الاستنتاج)، يوصف بأنه كل استدلال ضروري من الوقائع الأخرى التي تتصف باليقين. والواقع أنّ الحدس سيكون مطلوباً حتى البرهنة الاستنباطية، لأننا يجب أن نرى صدق كل قضية بوضوح وتميز قبل أن نشرع في الخطوة التالية وفي الوقت ذاته، فإنّ الاستنباط يكون متميزاً عن الحدس من حيث أنه يكون هناك في الحدس - وليس في الاستنباط- حركة أو توالي ما. (كوبلستون فردريك ، تر: سعيد، توفيق ومحمود سيد أحمد، 2013، صفحة 111) فنستطيع بواسطة الاستنتاج أن نعرف أنّ الحلقة الأخيرة في عملية الاستدلال طويلة مرتبطة بالحلقة الأولى مع أننا لا ندرك بفعل عقلي واحد كلّ الحلقات المتوسطة التي يقوم عليها الارتباط، وإنما نتذكر أننا قد نظرنا في كل هذه الحلقات بالتعاقب ووجدنا أنّ كل حلقة مرتبطة بالحلقة التي تليها ارتباطا ضروريا ابتداء من الأولى وحتى الأخيرة.

فالاختلاف بين الحدس والاستنتاج في نظر ديكارت هو أنّ الحدس عملية تمكّننا من إدراك الطبائع البسيطة والحقائق الثابتة والروابط بين حقيقة وأخرى إدراكاً مباشراً في زمان واحد وليس على التعاقب، في حين أنّ الاستنتاج عملية تنطوي على الحركة أو التعاقب. والحقيقة أنّ المبادئ الأولى تعرف بالحدس وحده، في حين تعرف النتائج البعيدة بواسطة الاستنتاج وحده. (كريم، 2001، صفحة 57) وبهذا الفكر الجديد يخالف ديكارت المدرسيين، ويهدم أصول منطقهم الأرسطي التقليدي، متمسكاً بالمنهج الرياضي للوصول إلى المعرفة بطريقتي الحدس والاستنباط، وبهذا أراد ديكارت أن تكون الفلسفة رياضة فكرية، أي أن تؤمن بأنّ الفكر ينطلق من مسلّمات أساسية هي بمثابة المسلّمات الرياضية، ثم يتناول الذهن بعد ذلك الحدوس المختلفة حول موضوع معين، بشرط أن تتطابق هذه الحدوس مع الحدوس الرياضية تماما وأن يرد كل حدس نتيجة انتباه أو تركيز شديد للذهن حتى يكون وروده نوعا من الإلهام، لكنه إلهام متعلق بالموضوع كما يقفز إلى ذهننا حل المسألة الهندسية أو المعادلة الجبرية نتيجة للتفكير الشديد في مضمونها سواء كان هذا التفكير ظاهرا أم خفيا. فيكون الحدس إذن ثمرة تركيز شديد لحدس أكبر ينطوي على إدراك للعلاقات بين الحدوس المختلفة حول الموضوع. (رواية، 1996، الصفحات 82-83)

يتبين لنا مما سبق، مدى مساهمة الرياضيات في تأسيس المنهج الديكارتي وكيف جعل منها ديكارت منهجاً للفكر يقوم على أساس الوضوح والتميز، عن طريق العقل الذي يجعل من الأفكار واضحة في الذهن.

وقد عمل ديكارت ما بوسعه لرد الاستنباط إلى الحدس، فعلى سبيل المثال يمكننا القول أنه في حالة القضايا التي يتم استنباطها مباشرة من المبادئ الأولى، يكون صدق هذه القضايا معروفاً لنا بواسطة الحدس حيناً وبواسطة الاستنباط حيناً آخر تبعاً لوجهة النظر التي نتخذها. (كوبلستون فردريك ، تر: سعيد، توفيق ومحمود سيد أحمد، 2013، صفحة 111) فالمنهج الديكارتي يقوم في فعلين هما الحدس والاستنتاج وهذان الفعلان في الحقيقة يرجعان إلى فعل واحد، لأنّ الاستنتاج ليس سلسلة من الحدوس لما بين حقيقة وأخرى من ارتباط ضروري منطقي، فيقوم كل من الحدس والاستنتاج في الرؤيا المباشرة. ولكن بينما ينصب الحدس على المفاهيم والطبائع البسيطة والمبادئ الأولى، ينصب الاستنتاج على مابين هذه الحقائق من نسب وعلاقات. (كريم، 2001، صفحة 58)

وديكارت يتحدث عن الحدس والاستنباط بوصفهما(عمليتين عقليتين)، منهجين يمثلان أفضل طريقين آمنين لبلوغ المعرفة. ولكن رغم أنهما كذلك، فإنهما لا يمثلان "المنهج" الذي تحدث عنه ديكارت في تعريفه للمنهج، لأنّ الحدس والاستنباط ليسا من قبل القواعد المنهجية، فالمنهج خلاف ذلك يقوم على قواعد لحسن استخدام هاتين العمليتين العقليتين. (كوبلستون فردريك ، تر: سعيد، توفيق ومحمود سيد أحمد، 2013، صفحة 112)

لقد حدّد ديكارت في مؤلفه مقال عن المنهج أربع قواعد أساسية ينبغي على الإنسان إتباعها في البحث عن الحقيقة والوصول لها. إذ تتمثل هذه القواعد في: قاعدة البداهة، قاعدة التحليل وقاعدة الترتيب ثم قاعدة الإحصاء. وهذا ما سنحاول عرضه بالتفصيل:

قاعدة البداهة: يقول ديكارت في هذه القاعدة التي يطلق عليها اسم قاعدة البداهة واليقين: ((أنه لا يقبل شيئاً على أنه حق، ما لم يعرف بالبداهة أنه كذلك، بمعنى أن يتجنب التعجل في الحكم والأخذ بالأحكام السابقة. كذلك فلن ندخل في أحكامنا إلا ما يتمثله العقل في وضوح وتميز يزول معهما كلّ شك)) ، (رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد ، 1968، صفحة 132) ومن تحليل هذه القاعدة تتضح لنا دعوة استقلال العقل عن سلطة الأحكام المسبقة والآراء الموروثة التي تفرض عليه ذلك لأنّ العقل بحكم طبيعته يتوصل إلى الحقيقة أو يدركها بذاته أي بالحدس العقلي المباشر الذي يدرك الأشياء للوهلة الأولى في حقيقتها ويقينها، وهو دعامة العلم. (رواية، 1996، صفحة 92) ويبدو أن ديكارت كان يعتقد أن المعرفة العلمية هي بالأحرى أشبه ببديهيات الهندسة واستنتاجاتها. (روبنسون ديف ، جاراتكريس ، تر:إمام، عبد الفتاح إمام، 2001، صفحة 31) تضع هذه القاعدة مقياساً للحقيقة وهو أن لا نقبل أيّ شيء كحقيقة إلاّ إذا ظهر أمام العقل واضحاً تماماً ومنفصلاً أو مستقلاً بحيث لا يبقى هناك مجال للشك.

قاعدة التحليل والتقسيم: هو التحليل الذي يبدأ بتقسيم كل مسألة صعبة إلى أكثر عدد ممكن وضروري من الأجزاء لكي تجد لها الحل الأفضل، حيث يقول ديكارت: ((ينحصر المنهج بأجمعه في أن نرتب وننظم الأشياء التي ينبغي توجيه العقل إليها لاكتشاف بعض الحقائق. ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة، إذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة إلى قضايا أبسط)). (رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد ، 1968، صفحة 143) وحلّ كل صعوبة ينطوي على الوصول إلى قضية أو جملة واضحة تظهر للعقل في تمام الوضوح وتمام الانفصال ولا يمكن الشك فيها. وإذا لم يكن بالإمكان تقديم البرهان على أنها كذلك، فيجب أن تظهرها قواعد البرهان على أنها تتصل بقضايا أو جمل أو أطروحات هي في تمام الوضوح وتمام الانفصال حين تظهر للعقل. (يوسف، 2013، صفحة 179)

قاعدة التركيب: وهي التركيب أو إعادة بناء الأفكار بطريقة منهجية بدءا من الأكثر بساطة والأسهل معرفة إلى الأكثر تعقيداً. ولكن إعادة بناء الأفكار يجب أن تتم وفقاً للقاعدة الأولى ألا وهي أنّ كل جزء في البناء يجب أن يكون صحيحاً. ويعبّر عنها ديكارت بقوله: ((أن أسُير أفكاري بنظام، بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلا حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيبا، بل وأن أفرض ترتيبا بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع)). (رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد ، 1968، صفحة 144)

قاعدة الإحصاء: تسمى بقاعدة الاستقراء التام أو الإحصاء أو التحقيق، وهو يعرضها في هذه العبارة الموجزة: ((أن أعمل في كلّ الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أني لم أغفل شيئاً)). (رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد ، 1968، صفحة 145) ويظهر لنا من مضمون هذه القاعدة أنها تدور حول عملية المراجعة لمختلف الأجزاء والعناصر، وذلك بغية التأكد بأنه لم نقم بإغفال أيّ خطوة أو عنصر أو جزئية ما. وبالتالي كانت هذه الخطوة بمثابة عملية فحصية قائمة على استدراك وتتبع الخطوات والأجزاء، ومرحلة منطقية تكفل الوصول إلى نتائج صحيحة وصادقة بالضرورة.

من المعروف أنّ منهج (قواعد تدبير العقل) لديكارت يكتمل بشكل نهائي بالشك المنهجي في (التأملات)، فالمنهج ينطلق من ضروب اليقين الطبيعية بالنسبة إلى الذهن ليبيّن عن طريق قاعدة (النظام) كيف يمكن أن تولد ضروب اليقين هذه معارف جديدة – أما الشك فيتحرى عن وسيلة موثوقة لاستبعاد كل ما لا يدخل في عداد اليقين - وهو يستخدم في ذلك علاوة على جهاز

الشك المنهجي (الكوجيتو) وضمان الله لليقين . وكل هذا القسم الثاني من نتاجه ضروري في نظر ديكارت لتهيئة الإرادة للأخذ بما يدركه العقل في وضوح وتميز.

2-3- بناء المنهج الهندسي عند سبينوزا:

وهكذا كانت نقطة انطلاق سبينوزا المنهجية هي التأمل في ذلك المنهج الديكارتي، فهناك ترابط منهجي بين الحقائق عند ديكارت، حيث يبدأ سبينوزا بأفكار واضحة ومتميزة، فقد سعى منذ البداية نحو التأسيس للعلمية في أن يكون موضوعيا ملتزماً بالطريقة العلمية التي تفرض عليه عدم الحاجة إلى إسقاط الذات وجعلها هدفا في النتائج، بل جعل الموضوعية هي الهدف الأساسي للمعرفة العلمية. فمن المعروف أن الإدراك الحسي للأشياء يختلف باختلاف العوامل المحيطة، مثل وضع المشاهد من الشيء المدرك. وبذلك تكون مثل تلك الإدراكات متغيرة بتغير المدرك وتكون ذاتية أكثر منها موضوعية، وبالتالي يصعب التعبير عنها بوضوح والتميز بين العناصر الموضوعية التي يمكن التعبير عنها بالأساليب الرياضية لأنها تخص البنية structure التي تعوَّد العلم التعبير عنها بالقوانين الرياضية. وهكذا تصبح الفيزياء رياضية، (زيد، 2008، صفحة 78) لا لكوننا نعرف الكثير عن العالم الطبيعي، بل لكوننا نعرف القليل. وأننا لا نكتشف من العالم غير صفاته الرياضية. من هنا نجد أنّ سبينوزا وجه التفكير وجهة أنطولوجية بآليات رياضية لتأزيم المفارقات اللاهوتية، وإبراز حدود المنهج الديكارتي وفتح إمكانات التفكير.

لقد اقتفى سبينوزا أثر فلاسفة عصره في انتهاج طريقة خاصة بالبحث وكانت الرياضيات قد استهوته كما استهوت ديكارت وهوبز (1588-1679م)Thomas Hobbesمن قبل فاعتقد بأنّ الرياضيات هي المفتاح لحل أسرار الكون واكتشاف قوانينه واتخذ الهندسة نموذجاً بنى على غرارها فلسفته. فكما أنّ الهندسة تبدأ بقضايا صادقة بذاتها، كذلك البحث عن الحقيقة ينبغي أن يبدأ بقضايا صادقة بذاتها تُتخذ نقطة انطلاق في بناء المعرفة البشرية التي ترمي إلى تحقيق سعادة قصوى دائمة متصلة للناس جميعاً. وإذا كان ديكارت قد وجد في النفس أو الأنا نقطة امتداد لفلسفته فإنّ سبينوزا وجد في الله نقطة ابتداء انطلق منها لبناء المعرفة. (كريم، 2001، صفحة 92) وهكذا اتبع سبينوزا المنهج الرياضي، فجاء كتابه (علم الأخلاق) مؤيدا بالدليل الهندسي، بطريقة هندسية، وبذلك يؤسّس منهج الفلسفة على منوال الهندسة الإقليدية، إذ ينطلق من تعريفات ومسلّمات وبديهيات. وقد ناقش سبينوزا قضية المنهج أيضا في كتابه (رسالة في إصلاح الفهم).

وقد حاول سبينوزا بناء فلسفته الميتافيزيقية والأخلاقية مستعيناً بالمنهج الهندسي، وقد ساد هذا الاتجاه الذي عُرف بالرياضيات التعميمية Mathesis Universalis على هذه الفترة. ونقصد بالرياضيات التعميمية محاولة الفلاسفة توسيع مجال الرياضيات بتطبيقها على مفاهيم خارج حدود المعرفة الرياضية، وإخضاع هذه المعرفة إلى شروط الاستدلال ومنهجية الاشتقاق. (ياسين، 2012، صفحة 14) وهكذا أراد سبينوزا أن يؤسس منهج لدراسة الفلسفة وهو المنهج الاستنباطي الرياضي الذي ينتقل فيه العقل من قضايا واضحة بذاتها كمقدمات إلى قضايا مستنبطة رياضياً تمثل النتائج.

ينطلق سبينوزا من أنّ الترتيب السليم للتفكير الفلسفي الصحيح يتطلب البدء انطولوجيا ومنطقيا بالله، وقد أجاز لنفسه أن يقول:<< إنّ الفلاسفة المبتذلين يبتدئون بالمخلوقات، في حين ابتدأ ديكارت بالروح ، أما أنا، فإنني ابتدئ بـ"الله" أو "الجوهر">>. (حسين، بدون تاريخ، صفحة 39) فقد رأى أنّ هناك إدراكات تتعلق بعالم الحس والتجربة، وإدركات تتعلق بالعقل، هذه الأخيرة أكثر يقينا، أما المصدر الحقيقي والأول لأفكارنا فهو الله أو الجوهر، وعن الجوهر يصدر ما يعرف بالأحوال بدل الأعراض، لكون الأحوال- في نظر سبينوزا-أكثر ايجابية من الأعراض، ذلك أنّ الأعراض لا تقوم بذاتها في وجودها. والأحوال قد تكون غير متناهية، وهي الأقل درجة من الله وتأتي مباشرة بعده، وأحوال متناهية، تتعلق بالأشياء المادية. وقد استخدم في ذلك المنهج الهندسي الرياضي، الذي يتأسّس على مجموعة من البديهيات والمسلمات والتعريفات، وصولاً إلى نتائج يقينية، وهذا هو المنهج الرياضي

الإقليدي الذي كان مسيطراً آنذاك. فرفض التصور الديكارتي والمتعلق بتعدد الجواهر، وأقرّ بالمقابل بجوهر واحد الذي به يرتهن كل شيء يسميه الله أو الطبيعة الطابعة، وقد بحث ذلك كله في الجزء الأول من كتابه المعروف بكتاب الأخلاق (Ethic)، حيث يبتدئ فيه بالبديهية الآتية لكي يصل إلى تعريف الجوهر أو الله: <<كل ما يوجد أنما يوجد في ذاته، أو في شيء آخر>>. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 32)

وهكذا بنا سبينوزا فلسفته كلها على الجوهر، لكنه جوهر واحد يسميه الله أو الطبيعة الطابعة الخاضع للضرورة هو الآخر، أما التعريفات التي وظفها في كتابه علم الأخلاق، فهي تعود إلى ديكارت من جهة،و إلى مفاهيم موروثة عن تراث قديم فلسفي وديني (الفلسفة اليهودية والديانة اليهودية)، أخضعها سبينوزا إلى صياغة خاصة قبل أن يجعلها أسساً لبناء نسقه الميتافيزيقي.

إنّ أساس المنهج عند سبينوزا هو تشخيص للفكرة الصحيحة من خلال تمييزها عن الادراكات الأخرى، وذلك من خلال تفحص طبيعتها، ((من أجل أن نعرف بذلك قوة فهمنا، ولندرب عقلنا على أن يكون مدركا – من خلال معيار معين- لكل ما هو واضح ومفهوم، من خلال وضع قوانين معينة كإرشادات، وتجنب الجهد الذهني غير المجدي)). (زيد، 2008، صفحة 82) فالمنهج عند سبينوزا هو المعرفة التأملية أو فكرة الفكرة، حيث يقول سبينوزا في "رسالة في إصلاح العقل" << والآن، بعد أن عرفنا أي نوع من المعرفة يلزمنا، يجب أن نشير إلى السبيل والمنهج اللذين سيقوداننا إلى معرفة الأشياء الواجب معرفتها بهذا النوع من المعرفة. لذلك لا بد أن نلاحظ، بادئ ذي بدء، أنّ البحث لن يتواصل هنا إلى ما لا نهاية له، وأنّ الكشف عن أفضل طريقة للبحث عن الحقيقة لن يجعلنا بحاجة إلى طريقة أخرى نبحث بها عن طريقة البحث تلك، ولا إلى طريقة ثالثة للبحث عن الطريقة الثانية، وهكذا دواليك بلا نهاية، وذلك لأنّنا لن نصل أبدا بهذا النحو إلى معرفة الحقيقة ولا حتى إلى أية معرفة.>> (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد، جلال الدين ، 2017، صفحة 35)

إنّ اكتشاف المنهج عند سبينوزا يلازم اكتشاف الحقيقة، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أنّ العقل لا ينتقل من المنهج إلى الحقيقة، إذ يفترض أن تسبقه فكرة صادقة موجودة من قبل، وبهذا الصدد يقول سبينوزا: << تختلف الفكرة الصادقة (إذ نملك فكرة صادقة) عما هي فكرته: فالدائرة شي، وفكرة الدائرة شيء آخر غيرها. وفعلا، ليست فكرة الدائرة شيئا يملك مركزا ومحيطا كالدائرة نفسها، كما أنّ فكرة الجسم ليست الجسم نفسه. ولما كانت الفكرة الصادقة مختلفة عما هي فكرته، كانت أيضا شيئا معقولا بذاته، أي أنه يمكن للفكرة، من حيث ماهيتها الصورية، أن تكون موضوعا لماهية موضوعية أخرى، وأن تكون هذه الماهية الموضوعية بدورها،منظورا إليها في ذاتها، شيئا واقعيا ومعقولا، وهكذا بلا نهاية>>. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد، جلال الدين ، 2017، صفحة 36) فقد رأى سبينوزا أنّ الفكرة الصادقة هي التي تكفل ذاتها بذاتها، فلا تفتقر إلى ما يضمن صدقها، وإلاّ تؤدي بنا إلى مراجعة لا متناهية وبالتالي إلى الشك المطلق. ذلك أنه إذا أردنا أن نعرف فكرة صادقة ما فلا نحتاج إلى معرفة فكرة أخرى لمعرفة فكرة الأولى ولا إلى فكرة ثالثة لمعرفة الفكرة الثانية هكذا إلى مالا نهاية. (كريم، 2001، صفحة 92)

وتبين لنا ممّا تقدم، أنّ سبينوزا قد اتخذ من هندسة إقليدس المثال الذي يحتذى به من أجل منهجه الهندسي، وتبعا لذلك فإنّ العناصر التي تشكل نسق المنهج الهندسي عند سبينوزا هي: أولاً التعريفات؛ ثانياً البديهيات وثالثاً البراهين.

3-2-1- أولا: التعريفات:

تعتبر التعريفات بمثابة حجر الأساس للنظام أو المنهج عند سبينوزا، فهي تشرح نظريته في المنهج وفي المعرفة، وكذلك النفس البشرية وطبيعتها، وهي تشير إلى مضمون القضايا عنده، كما تعطي للقارئ فهماً للخصائص العامة بكل قضية. وللتعاريف وظيفة ديناميكية، فهي تشكل نقطة الانطلاق الأولية لمنهج سبينوزا، وبدونها لا يمكن فهم القضايا والعروض اللاحقة في كتابه.

إنّ التعريف يحدّد جوهر الشيء وماهيته، وما إلى ذلك، حيث يسمح للمرء باستنتاج الخصائص الضرورية التي ينتمي إليها هذا الشيء، ومن هذا التعريف يمكن استنتاج كل خصائص الشيء. (Nadler, 2006, p. 44) والتعريفات الهندسية (géométrique) في معجم الفلسفي، وهي التي تستخدم مادة للعلم وتكون مقدمتها تجريبية، وهي التي تلخص المعارف التي حصلنا عليها بواسطة الاستقراء في علم ما. (مراد، 2007، صفحة 199)

وإذا تأملنا فلسفة إسبينوزا من خلال منهجها الهندسي، لوجدنا أنّ التعريف الصحيح لمصطلحاتها ينبغي أن يستغرق الجانب الأكبر من أي عرض لهذه الفلسفة، بل إنّ أوجه هذه الفلسفة لا تعدو أن تكون إيضاحا للمعاني السبينوزية الخاصة لمصطلحات مألوفة مثل الجوهر أو الله أو الطبيعة، والحرية والضرورة، والأزلية والتقوى والخير، والكمال والواقع ...إلخ. فخير عرض وأكمل شرح لهذه الفلسفة هو ذلك الذي يركز اهتمامه في تحديد معاني هذه الألفاظ. وهكذا فإنّ مشكلة التعريف بالمصطلحات هي بمعنى معين مشكلة عرض فلسفة سبينوزا بأسرها. (زكريا، 2017، صفحة 60)

وعلى الرغم من كثرة التعاريف وتشعبها، لكن لا مفر من أن نبدأ بإيضاح موجز لبعض التعاريف الرئيسية التي يستخدمها سبينوزا، وتبعا لذلك ستكون للتعريف قواعد يجب مراعاتها، يمكن أن نجملها على النحو التالي:

فإذا كان الشيء مخلوقاً روعيت في تعريفه القواعد التالية:

- ينبغي أن يتضمن التعريف سببه القريب، فينبغي أن نعرف الدائرة وفقاً لهذا القاعدة بأنها الشكل الذي نحصل عليه من خط أحد طرفيه ثابت والآخر متحرك.
- ينبغي أن يكون التعريف مما يساعدنا على استنتاج كل خواص الشيء منه كما هو الحال في تعريف الدائرة السابق. فمن هذا التعريف نستنتج أن كل الخطوط المرسومة من المركز إلى المحيط متساوية. ولذلك ينبغي أن يكون التعريف محصلاً.
- وأما إذا كان الشيء غير مخلوق فإنّ القواعد الآتية تراعى في تعريفه:
- استبعاد فكرة السبب من التعريف استبعاد كلياً وينبغي ألاّ نفسر الشيء بواسطة أي شيء آخر خارجه.
- ينبغي أن يزول كل شيء يتعلق بوجود الشيء وعدم وجوده.
- ينبغي ألا يحتوي التعريف على أسماء أوصاف Substantives، وبكلمة أخرى ينبغي ألا يفسر الجسم المعرف بواسطة أشياء مجردة.
- ينبغي أن يكون في الإمكان استنتاج كل خواص الشيء المعرف من تعريف. (كريم، 2001، الصفحات 97-98)

وبعد عرضنا لقواعد التعريف التي وضعها سبينوزا في كتابه " رسالة في إصلاح العقل"، يظهر لنا أنّ تفسير الشيء يكون إما بماهيته أو سببه القريب الذي يعتمد عليه في وجوده، وهذا بدوره يعتمد على شيء آخر في وجوده إلى مالا نهاية له، ولاجتناب سلسلة ما لا نهاية من العلل، يرى سبينوزا ضرورة البحث عن كائن يكون علة ذاته وعلة كل الأشياء، بحيث تكون ماهيته الموضوعية علة كل فكرة، وبالتالي تقوم الطريقة الصحيحة عنده باكتشاف فكرة تلزم عنها جميع الأفكار وهذه الفكرة هي الله وهي الكل.

ولعله لا يخفى أنّ هناك شيئا ما يفوق قانون اللاتناقض قصد به هذا الكلام، لأنّ التعريف الحسن يتضمن ما هو أكثر من الخلو من التناقض الذاتي، ويقول سبينوزا: << لكي يكون التعريف كاملا يجب أن يوضح الماهية الداخلية للشيء، ويجب أن يحرص على عدم الاستعاضة عن هذه الماهية بأي شيء حتى خاصياتها>>. (شاخت ريتشارد، تر: حمدي محمود أحمد، 1998، صفحة 92)

وبناء على ما تقدم تخبرنا هذه القواعد على ضرورة التمييز بين نوعين من التعريف، التعريف الصوري (formal définition) الذي يمثل قاعدة فقط، تسمح لنا باستبدال رمز برمز آخر. والتعريف السيمانطيقي (semantical définition) الذي يمثل قاعدة تسمح لنا بتعيين معنى الرمز الذي نريد تعريفه أو توضيح معناه. (زيد، 2008، صفحة 113)

يفرّق سبينوزا بين نوعين من التعريف: ((تعريف ينطبق على موضوع لا نبحث إلا عن ماهيته، التي تكون هي وحدها موضوع التساؤل وتعريف يُقترح للبحث فقط))، فالأول هو تعريف الأشياء الحقيقة الموجودة بالفعل، وهي الأشياء التي نريد معرفة ماهيتها، ومثل هذا النوع من التعريف يحتاج دائما إلى برهان. أما النوع الثاني من التعريف فهو استنباطي يقترحه الباحث ولا يشترط فيه إلاّ الاتساق، وهو على هذا الأساس لا يحتاج إلى برهان، إذ أنه ليس إلاّ وسيلة لاستنباط حقائق أخرى فيما بعد. (زكريا، 2017، صفحة 61) فالتعاريف الاستنباطية أو التوليدية، هي تعاريف قادرة على توليد التعاريف والوصول إلى المعرفة، وقد قدّم سبينوزا تعريفاً لله من خلال خصائصه اللانهائية، والتي استبعد فيها إمكانية تعدّد الصفات نفسها، ولكل صفة خصائص غير منتهية. (Garrett, 2003, p. 149) ومثل تعريف سبينوزا لله: << أعني بالله كائناً لامتناهياً إطلاقاً، أي جوهر يتألف من عدد محدود من الصفات تعبر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لا متناهية>>. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 31)

وبناء على ما تقدم هناك نوعان من التعاريف: تعاريف اسمية وتعاريف واقعية، فالتعريف الاسمي يعبر عن الشيء كما نتصوره في أذهاننا، وهو يتناول موضوعات مجرد فقط، مثل لفظ إنسان، وأما التعريفات الواقعية فتعبر عن ماهية الأشياء ولا تكتفي بذكر خصائصها، فلكي يكون التعريف شاملا يجب أن يكشف عن الماهية الخاصة للأشياء، والواضح أنّ كلّ التعاريف التي استخدمها سبينوزا في كتابه علم الأخلاق هي كلها من النوعي الثاني. ومن هنا يتضح لنا أنّ التعريفات التي أتى بها للجوهر والصفة...الخ هي تعريفات من النوع الثاني، ولذا لم يكن ينبغي أن يطلب لها برهان، وإنما يكفي أن تكون متسقة وهذا أمر يرتبط –كما هو واضح- بطبيعة الموضوعات التي تتناولها هذه التعريفات، إذ أنّ هذه موضوعات ميتافيزيقية وليست أشياء واقعية، ولهذا الاختلاف بطبيعة الحال تأثيره الكبير في الموقف الفلسفي العام لكل من الطرفين. (زكريا، 2017، صفحة 62)

3-2-2- ثانيا: البديهيات:

البديهيات أو البديهي هو ما لا يتوقف حصوله في الذهن على نظر وكسب، سواء احتاج إلى شيء آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك أو لم يحتج (تعريفات الجرجاني)، وهو بهذا المعنى مرادف للضروري، وقد يراد بالبديهي ما لا يحتاج العقل في التصديق به إلى شيء أصلا، فيكون أخص من الضروري لعدم شموله للتصور. (سعيد، 2004، صفحة 75) وكان ديكارت قد بيّن أنّ البداهة معيار الحقيقة وأنّ المعاني لا تكون بديهية إلاّ إذا كانت واضحة متميزة، مع أنّ البداهة التي يتحدث عنها هي البداهة العقلية.

البديهيات على وفق نظام إقليدس قضايا صادقة، وما يشتق منها يكون صادقا بالضرورة. فالطريقة البديهية التي يتبناها سبينوزا في منهجه الهندسي تقوم على تجريد المعاني الحسية المرتبطة بالحدود الأولية التي يوضحها في تعريفاته، وبالعلاقات الأساسية الرابطة بين هذه الحدود على وفق نظام الأسباب الذي يقترحه في فلسفته جملة. وبالتالي سوف يتركز اهتمامه هنا بالأبنية الصورية فقط، إذ أنّ هذا الاهتمام سيكون كافيا لتكوين أفكارا صحيحة. ومنه فليست هناك حاجة بعد ذلك لفهم سلسلة الأشياء – المتغيرة الخاصة – على حدّ تعبيره. ويعتقد سبينوزا أنّ حقيقة البديهيات لا تتطلب دليلاً مستقلاً، ولكن يجب أن تحقق البديهية شرط الوضوح لأي عقل، أي أنّ البديهيات لا تنطوي على شروط في وضوحها، ولا يمكن لأيّ شخص إنكارها لأنها معقولة وبصورة واضحة. (Garrett, 2003, p. 49)

وبذلك تتحول النظرية الفلسفية عند سبينوزا إلى نظرية علمية ، لا يرى فيها من خلال بديهياته إلاّ مجرد أبنية صورية تعبر عن العلاقات الأساسية. وبذلك تكون الصيغ في هذه النظرية جاهزة لأي تفسير أو تعيين قيّم للحدود والعلاقات الأساسية، على أنّ هذا لا يدل على أنّ النظام البديهي نظاما مؤلفا من قضايا حول موضوع معين، إنه نظام يعبّر عن الأبنية وعلاقاتها فقط. إذ ((لا يمكن للعقل أن ينحدر من البديهيات بذاتها إلى الأشياء المستقلة، لأنّ البديهيات امتداد غير متناه، ولا توجّه العقل للتأمل بشيء خاص معين أكثر من غيره)). (زيد، 2008، صفحة 114)

إنّ البديهيات التي يقدمها سبينوزا بداية من الجزء الأول وصولاً إلى الجزء الخامس من كتابه " علم الأخلاق" هي بديهيات ومبادئ عامة حول الأشياء والأفكار، وتعبر هذه البديهيات الأساسية والتجريدية عن الحقائق والوضعيات المشتركة، وعلى الرغم من أنّ البديهيات تنطبق على جميع التفاصيل التي تندرج تحتها، إلاّ أنّ سبينوزا حريص كل الحرص على أنّ البديهيات لا يمكن لنا استخلاص أي حقيقة محدّدة عن طبيعة الشيء، لأنّ البديهيات هي اللاّنهائية. (Nadler, 2006, p. 48)

وقد أدرج سبينوزا في كتابة علم الأخلاق العديد من البديهيات، ومنها ما ذكره في الباب الأول الذي عنونه سبينوزا "في الله" ومنها:

- كل ما يوجد إنما يوجد في ذاته أو في شيء آخر.
- إنّ ما يتعذر تصوره بشيء آخر، لابد من تصوره بذاته.
- إذا وُجدت علة معينة نتج عنها بالضرورة معلولا ما، وعلى العكس، إذا لم توجد أيّ علة معينة كان من المحال أن ينتج عنها أي معلول.
- تتوقف معرفة المعلول على معرفة العلة وتنطوي عليها.
- الأشياء التي لا يتفق بعضها مع البعض في شيء، لا يمكن معرفة بعضها ببعض، بمعنى أنّ تصور بعضها لا ينطوي على تصور بعضها الآخر.
- لابد أن تكون الفكرة الصحيحة مطابقة للموضوع الذي تمثله.
- كل ما يمكن تصوره غير موجود، إنما ماهيته لا تنطوي على وجوده. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، الصفحات 32-33)

وعلى ذلك يمكن أن نرى بأنّ النظام البديهي الذي يوظفه سبينوزا في كتابه (الأخلاق) تتشكل بديهياته في أنساق يشير كل منها إلى موضوع ذلك القسم من الكتاب ذو الأقسام الخمسة. وعلى سبيل المثال كان موضوع القسم الأول من كتابه متعلق بالإله، فنراه يضع نسقا من سبع بديهيات تشير إلى ذلك الموضوع بحيث تخلق هذه المجموعة من البديهيات نسقا مقبولا يكون أساسا متكافئا للبرهنة على كل التحصيلات الخاصة بمنطق ذلك الموضوع. وبذلك يحصل النسق البديهي، المتعلق بذلك الموضوع على شرط التمام، (علي، 1972، صفحة 307) والأمر كذلك بالنسبة إلى باقي أقسام الكتاب. على أنّ كل بديهية من البديهيات هي نسق موضوع البحث وتتميز بالاستقلال، بحيث لا نراه يذهب إلى إثبات أيّ بديهية من تلك البديهيات بحكم البداهة بناءا على أحكام بديهية أخرى. وبالتالي لم تتصف أيّ بديهية بالتكرار، إذ أنّ حكم البداهة هنا يختلف عن البديهية من حيث أنها في النظام البديهي مجرد فئة محددة نستطيع بواسطتها اشتقاق صيغة مباشرة من فئة محدودة من الصيغ كمقدمات. وهذا ما يشير إليه سبينوزا بقوله ((أننا في حاجة إلى أشياء أخرى تساعدنا في فهم الأشياء الأزلية)). إضافة إلى التعريف والبديهيات وهذه المواد الأساسية الثلاثة تشكل ((نظاما ملائماً لكلّ الاستنتاجات الواضحة الممكنة)). (زيد، 2008، صفحة 117)

وبذلك نستطيع القول أن بديهيات سبينوزا انتظمت بطريقة – اكسيوماتيكية Axiomatic* على اعتبار أن الاكسيوماتيك

* إن مجموع الأوليات (الاكسيومات) التي يختارها الرياضي لتشييد صرح بناء رياضي معين يشكل هو وهذا البناء نفسه باعتباره بناء منطقي متماسك، ما يطلق عليه اسم الاكسيوماتيك ، فهو منظومة من الأوليات يقوم عليها بناء رياضي معين. بناء يختلف عن البناء رياضي مماثل باختلاف الأوليات التي يقوم عليها كل منها ، فالهندسة الاقليدية وهندسة لوباتشيفسكي وهندسة ريمان وغيرها من الهندسات الأخرى يشكل كل منها اكسيوماتيكا خاصا يختلف عن غيره باختلاف أولياته أو بعض منها أو إحداها. للمزيد أنظر: عابد الجابري، محمد: تطور الفكر الرياضي والعقلاني المعاصر ، ص: 75.

متعلق بأخذ حدود لا هي منطقية ولا رياضية – على غرار الحدود المستخدمة في (الأخلاق) – بل هي اسمية nominal.

3-2-3- ثالثاً : البرهان:

البرهان هو التمشي العقلي الذي نستدل به على صدق حكم أو قضية، وتسمى الاستدلالات التي يُبنى عليها البرهان حُجَجا، ويفترض في الحجج أن تكون صادقة وغير متضمنة لمعلومات تفترض القضية المراد البرهنة عليها، وإلاّ وقعنا في ما يسمى بالمصادرة على المطلوب. وقد يكون البرهان عرضة لأخطار معينة بسبب قبول حجج لا أساس لها أو خاطئة. والبرهان الذي يحتوي على خطأ يكون برهانا فاسدا. (سعيد، 2004، صفحة 78) وتتسم الطريقة الهندسية بعد تعريف المفاهيم الأولية وتميزها عن المفاهيم غير المعرفة، ثم اختيار بعض الصيغ باعتبارها بديهيات، نستطيع بواسطتها اشتقاق صيغ أخرى بالبرهنة على هذه المشتقات أو المبرهنات بواسطة البديهيات، وهذه الطريقة تدعى أيضا بالطريقة البرهانية، وهي استناداً إلى ما ورد في هندسة إقليدس افترضت مجموعة قليلة من البديهيات على أساس أنها صادقة بالضرورة وواضحة بذاتها . وقامت باشتقاق مجموعة كبيرة من القضايا الهندسية المنتمية لها. (ياسين، منطق البحث العلمي، 1974، صفحة 327)وإذا كانت التعريفات والبديهيات واضحة لا تحتاج إلى برهان، فإنّ القضايا الأخرى قد تكون أقل وضوحا، وقد تحتاج إلى إثبات لكي تصبح صادقة ويقينية هي الأخرى كذلك. وقد استخدم سبينوزا في كتابه علم الأخلاق المبرهنات لتكوين مجموعة من القضايا. وقد وضع سبينوزا مجموعة من القضايا ولكل منها برهان خاص بها ومن بينها:

القضية 01: " الجوهر متقدم على أعراضه". (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 33)

القضية 02: " الجوهران اللذان يملكان صفات متباينة إنما هما لا يتفقان في شيء". (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 33)

برهان القضية الأولى والثانية: إنّ ذلك بديهي من خلال التعريف 03(البديهية الثالثة السابقة)، وفعلاً، لا بد لكل جوهر في ذاته ويُتصور بذاته، بمعنى أن تصور أحدهما ينطوي على تصور الآخر. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 33)

القضية 03: " إذا لم تتفق أشياء بعضها مع بعض في شيء ما، فإنه لا يمكن لبعضها أن يكون علة للبعض الآخر. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 33)

وبرهان هذه القضية: إذا لم يتفق بعضها مع بعض في شيء ما، فإنه لا يمكن إذا (حسب البديهية 05) معرفة بعضها بالبعض الآخر، وهكذا (حسب البديهية 04) فإن بعضها لا يمكن أن يكون علة لبعضها الآخر.

القضية 04: يتميز شيئان متباينان أحدهما عن الآخر، أو أشياء متباينة، كثيرة بعضها عن بعض إما بتنوع صفات الجواهر أو بتنوع أعراض هذه الجواهر. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 34)

وبرهان هذه القضية: "كل ما يوجد إنما يوجد في ذاته أو في شيء آخر (حسب البديهية 01)، بمعنى أنه لا يوجد شيء خارج العقل عدا الجواهر و أعراضها. ولا يوجد إذا خارج العقل ما يسمح لأشياء كثيرة بتميز بعضها البعض عدا الجواهر".

القضية 05: " لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران أو عدة جواهر من الطبيعة أو صفة واحدة". (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 34)

وبرهان القضية: لو وجدت عدة جواهر متميزة بعضها عن بعض، لكان تميزها إما بتنوع الصفات أو بتنوع الأعراض (القضية السابقة)، وإذا كان تميزها بتنوع الصفات فحسب، فإننا سنسلم إذاً بأنه لا يوجد غير جوهر واحد للصفة الواحدة. وإذا

كان تميزها بتنوع الأعراض فبما أن الجوهر متقدم بالطبع على أعراضه، فإننا لا نستطيع، إن نحن أبعدنا الأعراض واعتبرنا الجوهر في ذاته. (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 34)

القضية 06: "لا يمكن لجوهر ما أن ينتج عن جوهر آخر". (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 35)

وبرهان هذه القضية: أنه لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران لهما صفة واحد، فإنه لا يمكن لأحدهما أن يكون علة للآخر.

القضية 07: "من طبيعة الجوهر أن يكون موجوداً ". (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 35)

وبرهان هذه القضية: لا يمكن للجوهر أن ينتج عن شيء، فهو علة ذاته، و أن ماهيته تنطوي بالضرورة على وجوده.

وبعد تبين القضايا التي لا تحتاج إلى برهان عن المبرهنات، يقوم الرياضي بعملية البرهنة، والبرهان هو عملية استدلال يقوم الرياضي من خلاله بإثبات صدق أو كذب قضية ما. وإذا كانت التعريفات والبديهيات واضحة ولا تحتاج إلى برهان، فإنّ القضايا تكون أقل وضوحا وتحتاج لإثبات وبرهنة لكي تكون يقينية هي الأخرى، ويتبين لنا من خلال "كتاب علم الأخلاق" أنّ البناء البرهاني عند سبينوزا أسلوبا يتلخص بتعيين اللامعرفات أولا، ثم تعريف الأفكار التي تأتي بعدها، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تعريف الأفكار الأخرى بالأفكار التي سبقتها حتى يتمّ البناء أجمعه. فنراه إذا أراد البرهان على أنّ فكرة ما مشتقة من النظام، فما عليه إلاّ إرجاع هذه الفكرة إلى الأفكار التي استخدمت في تعريفها، وإرجاع هذه الأفكار إلى تلك التي سبقتها وهكذا. ويسمى هذا النوع من البرهان بالإرجاع أو الرد (réduction). (زيد، 2008، صفحة 119) فعلى سبيل المثال نختار القضية (رقم 3) من الكتاب الأول من الأخلاق، المعنونة (الفرضية proposition III -3-) والتي تنص على أنّه ((إذا لم تتفق أشياء بعضها مع بعض في شيء ما، فإنه لا يمكن لبعضها أن يكون علة للبعض الآخر)). (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 33) فيقيم البرهان عليها بالشكل التالي: ((إذا لم تكن الأشياء مشتركة مع بعضها، فلا يمكن أن يكون أحدها مدركاً من خلال وسائل إدراك الأخر)). وهنا يحيل القارئ إلى البديهية (رقم 5) والتي تنص على أنّ ((الأشياء التي لا يتفق بعضها مع البعض في شيء، لا يمكن معرفة بعضها ببعض، بمعنى أن تصور بعضها لا ينطوي على تصور بعضها الآخر)). (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 32) وهنا يعمل إلى إرجاع القارئ أيضاً إلى البديهية (رقم 4) ((إنّ معرفة المعلول تستوجب وتتضمن معرفة العلة)). (باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين ، 2009، صفحة 33) وهكذا نرى كتاب الأخلاق قد بنُي كله بهذه الطريقة نفسها.

والملفت للنظر في طريقة سبينوزا البرهانية هو إدراجه قائمة من القضايا المشتقة والتي جاء بها تحت اسم (فرضيات propositions). وربما كان ذلك لإضفاء طابع العلمية إلى فلسفته. فإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مفهومنا لجوهر (الفرضية) بما هي كذلك، فإننا نجد أنّ الفرضيات عبارة عن صيغ لغوية يعرضها الباحث نتيجة لدراساته النظرية من أجل البحث عن مقدمات نظرية تفي بالمتطلبات التجريبية للبحث.

وهذا لا يعني أنّنا نقول أنّ الفرضية هي قضية تجريبية، فنستنطق سبينوزا بما هو ليس عليه. لأنّ الفرق بين الفرضية والقضية التجريبية واضح من حيث هو فرق في المستوى ودرجة التجريد، فالقضية التجريبية أقل من مستوى الفرضية. وأنّ درجة تجريد الفرضية ومستواها يرتبطان بالسلسلة الاستنتاجية، فإذا كان الاستنتاج مباشراً كانت الفرضية عندئذ ذات مستوى تجريدي من الفرضية التي يعتمد الاستنتاج فيها على سلسلة خطوات. فإنّ الفرضية باعتبارها صيغة عامة تشتق منها القضايا التجريبية، لابد أن تنتمي إلى مستوى يختلف عن مستوى القضايا التجريبية. ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال في مستوى القضايا التجريبية، وهذا المستوى أرقى في درجة التجريد من القضايا التجريبية. (زيد، 2008، صفحة 120)

ولما كانت مقدمات الهندسة البحتة بوصفها يقينية ولا يتطرق إليها الشك، فهي من جهتها ليست فرضيات. ولكن إذا ما قمنا بتفسير مفاهيم وصيغ الهندسة عن طريق إقران أشياء وصفات وحالات تجريبية بها أصبحت فرضيات. فالفرضية إذن قضية نفترضها من دون أن نعرف ما يترتب عليها من نتائج، فهي أساس نستند عليه في الاستنتاج.

4- خاتمة:

تأسيسًا على ما تقدم، يتضح أنّ المنهج الهندسي عند سبينوزا هو منهج استنباطي، لأنّ الفلسفة تحتاج لهذا المنهج العلمي ويعتقد سبينوزا أنّ القضية لا يظهر صدقها ووضوحها ويقينها إلاّ إذا ظهرت كجزء من نظام استنباطي متكامل مع بعضه البعض حيث أنّ كل قضية تتصل بالقضايا الأخرى وترتبط بها. ويقوم المنهج الهندسي على نوع من المعرفة العقلية الحدسية التي تدرك الشيء بماهيته أو بعلته القريبة، مثل معرفة خصائص شكل هندسي لمعرفة تعريفه.

وبالنسبة لسبينوزا فإنّ حقيقة الأفكار الصحيحة يجب أن تكون واضحة وصادقة، من أجل الوصول إلى الفكرة الصحيحة. وفي الوقت الذي كان فيه المنهج الهندسي المنهج العلمي الأكثر وضوحا، اعتقد سبينوزا أنّ المنهج الهندسي الذي يبدأ مع تعريفات وبديهيات ثم ينتقل من فرضية إلى أخرى، يمكن أن يقدم صورة للعالم عن طريق نموذج منظم ومنطقي، حين يوفر القوانين الضرورية لإدراك الأشياء وفقا للنتائج المتسلسلة للقضايا الفلسفية على الشكل الرياضي.

من خلال ما سبق ذكره، توصلنا في نهاية هذا البحث إلى النتائج التالية:

- أنّ المنهج الديكارتي يقوم على دعامتين: الحدس والاستنباط، حيث يقدم الحدس حقائق بسيطة ويقينية، ثم يقوم الاستنباط بالاعتماد عليها، وقد وضع ديكارت أربع قواعد لمنهجه، وهي: قاعدة البداهة والوضوح، قاعدة التحليل قاعدة التركيب وقاعدة الإحصاء والمراجعة.
- إن القاعدة التي انطلق منها سبينوزا وأسس عليها منهجه العلمي، تعود بالدرجة الأولى إلى النهاية التي انتهى منها روني ديكارت في منهجه وهي التي شكلت جل أفكار منهج سبينوزا في تكوين منهجه الهندسي.
- إنّ البناء العلمي للمنهج الهندسي كان على شكل تعريفات تحتاج إلى بديهيات ومسلمات مدعومة بقضايا مُطالب البرهنة عليها، هكذا كان شكل البناء الهندسي للمنهج عنده.
- الملاحظ للمنهج الهندسي عند سبينوزا، أنه قد استهل مؤلفه بجملة من التعريفات ومجموعة من البديهيات وكذلك قضايا قابلة للبرهنة عليها رياضياً بالخلف أو التراجع، ويظهر هنا أنه قد تأثر بالعالم الرياضي إقليدس وأنّ جميع القضايا هي ذات مبدأ رياضي قبل كل شيء.

- قائمة المراجع:

باروخ إسبينوزا، تر: سعيد جلال الدين . (2009). علم الأخلاق. بيروت لبنان: المنظمة العربية للترجمة،توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى.

باروخ إسبينوزا، تر: سعيد، جلال الدين . (2017). رسالة في إصلاح العقل. بيروت لبنان: الناشر مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

جميل, ص. (1982). المعجم الفلسفي ج 01. بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني بدون طبعة.

حسين, ع. (بدون تاريخ). سبينوزا، سلسلة أعلام الفكر العالمي. بيروت لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،(ب ط.(

رواية, ع. ا. (1996). ديكارت والفلسفة العقلية. بيروت لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر،(ب ط.(

روبنسون ديف ، جاراتكريس ، تر:إمام، عبد الفتاح إمام. (2001). أقدم لك ...ديكارت. القاهرة مصر: المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (ب ط.(

رينيه ديكارت، تر: لخضيري محمود محمد . (1968). مقال عن المنهج. مصر: دار الكاتب العربي لطبع والنشر، الطبعة الثانية.

زكريا, ف. (2017). إسبينوزا. المملكة المتحدة: الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي، الطبعة الأولى.

زيد, ع. ك. (2008). اسبينوزا الفلسفة الأخلاقية. بيروت لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

سعيد, ج. ا. (2004). معجم المصطلحات الشواهد الفلسفية. تونس: دار الجنوب للنشر،(ب ط.(

شاخت ريتشارد، تر: حمدي محمود أحمد. (1998). رواد الفلسفة الحديثة. مصر: الناشر مطابع الهيئة المصرية العامة ،(ب ط.(

علي, ع. ا. (1972). المنطق ومناهج البحث العلمي. مصر: الناشر دار الجامعات، الطبعة الأولى.

كريم, م. (2001). الفلسفة الحديثة عرض نقدي. بنغازي ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة.

كوبلستون فردريك ، تر: سعيد، توفيق ومحمود سيد أحمد. (2013). تاريخ الفلسفة، الفلسفة الحديثة(من ديكارت إلى ليبنتز)، مج 4. المركز القومي للترجمة، الطبعة الثالثة.

لالاند, أ. (1996). موسوعة لالاند الفلسفية. باريس فرنسا- بيروت لبنان: دار عويدات بيروت.

لالاند، أندريه ، تعريب: خليل أحمد خليل . (2001). معجم لالاند الفلسفي. بيروت لبنان: منشورات عويدات، الطبعة الثانية.

مراد, و. (2007). المعجم الفلسفي. القاهرة مصر: دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع،(ب ط.(

الموسوعة العربية الميسرة (المجلد السادس). (2009). بيروت لبنان: شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.

ياسين, خ. (1974). منطق البحث العلمي. بيروت لبنان: الناشر دار الكتب، الطبعة الأولى.

ياسين, خ. (2012). مقدمة في الفلسفة المعاصرة. عمان الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع،الطبعة الثانية.

يمنى, ظ. ا. (2020). مفهوم المنهج العلمي. مصر: مؤسسة الهنداوي للعلوم والثقافة والنشر ، الطبعة الأولى.

يوسف, ا. إ. (2013). مدخل إلى الفلسفة. الدار البيضاء المغرب: الناشر المركز الثقافي العربي ، الطبعة الثانية.

Garrett, A. V. (2003). Meaning IN Spinoza's Method. the United States of America, New York: Cambridge University Press. Published in.

Nadler, S. (2006). Spinoza's Ethics An Introduction. UK: Cambridge university press. The Edinburgh Building, Cambridge cb2 2ru.